المحاضرة الثانية:

الإحياء الشعري في المشرق (مدرسة ما بعد البارودي)

تمهيد:

يمثل هذه المرحلة تيار الشعراء الذين تتلمذوا على يد البارودي أمثال أحمد شوقي (1868-1932) وحافظ إبراهيم (1872-1932) ومعروف الرصافي (ت 1945) الذين ساروا على طريقة البارودي في نظم الشعر، فجاء نتاجهم الشعري محافظا على الخصائص الفنية المميزة للقصيدة التقليدية، منها وحدة البيت والمحافظة على وحدة الوزن والقافية، الانتقال المفاجئ من الموضوع الأصل إلى موضوعات أخرى فرعية.

- دور الشاعر أحمد شوقي في تطور مدرسة الإحياء والبعث:

واصل أحمد شوقي المسيرة التي بدأها البارودي في إحياء التراث العربي مع قدرة عالية على تمثله لخصائصه الفنية، وساعده على ذلك استيعابه الواعي لكل الأنغام الشعرية في تاريخنا الأدبي، ومعايشته الطويلة لدواوينهم الشعرية، إلى جانب ذلك امتاز شوقي بحس لغوي مرهف وفطرة موسيقية بارعة في اختيار الألفاظ التي تتآلف مع بعضها البعض لتحدث النغم الذي يثير الطرب. ويجذب الأسماع فجاء شعره لحناً صافيا ونغما رائعا لم تعرفه العربية إلا لقلة قلية من فحول الشعراء.

وقد أتيحت لشوقي من ألوان الثقافة ما لم يتح للبارودي من قبل، حيث بعث إلى فرنسا واطّلع على الآداب الأوربية وشاهد مسارحها وعاش مع شعراء الغرب، واطّلع على مظاهر التجديد في الشعر الفرنسي عند أعلامه أمثال (فيكتور هيجور، لامارتين وراسين...)، ومن ثم كانت الفرصة سانحة لاقتحام شوقي عالم المسرح

الشعري وابتكار هذا الجنس الأدبي لأول مرة في الأدب العربي الحديث، وبهذا يكون شوقي في طليعة المدرسة المحافظة التي تابعت خطوات الإحياء والبعث محققة شعار التجديد في إطار المحافظة على الشكل القديم.

نظم شوقي شعره في أغراض الشعر العربي من مديح ورثاء وغزل ووصف وحكمة، وله فما ذلك قصائد رائعة، إلى جانب ذلك فقد سخر طاقته الشعرية في التعبير عن القضايا القومية والوطنية، ولطالما خاض شوقي في القضايا السياسية للبلاد وقضايا تعليم المرأة والدستور والأحزاب وحرية الصحافة والوحدة الوطنية وغيرها لذلك «يعتبر أحمد شوقي من أهم شعراء مدرسة البعث والإحياء الدين سعوا لتأصيل تجربة البارودي والاستمرار بها وتجاوزها وارتياد آفاق جمالية و موضوعية لم يبلغها البارودي من قبل». حيث أسهم إسهاما كبيرا «في بناء القصيدة التقليدية وفي تعزيز صورتها الجمالية التي بلغ بها أعلى مراتب الشعر العمودي».

إن المتصفح لشعر شوقي في شتى أغراضه السياسية والاجتماعية والتاريخية يمكن تقسيم إنتاجه الشعري إلى ثلاث مراحل أساسية:

1- مراحل شعر أحمد شوقي:

أ. مرحلة ما قبل المنفى:

وهي المرحلة التي كان فيها أحمد شوقي شاعر القصر وشاعر البلاط،حيث قربه الخديوي عباس حلمي منه فكان مؤيدا لسياسته، فنظم أحمد شوقي العديد من القصائد «في مدح أولياء نعمته لاسيما الخديوي عباس الذي لازمه ربع قرن، كما مدح السلطان عبد الحميد الذي كان الشاعر يحبه لما لقي عنده من الحفاوة عند زيارته الأستانة، وكانت نزعته عثمانية يدعو إلى الجامعة الإسلامية». ومن قصائده الشعرية التي ألفها في السلطان عبد الحميد حيث جعل عصره خير عصور الخلافة على الرغم مما اتصف به حكمه من ضعف قوله:

هل حكام العباد في الشمس إلاّ أنـها الشمس فيها كـــلام

ومكان الإمام أعلى ولكن بأحـاديـثه يتيـــه الأنـــام

إيه عبد الحمـــيد جل زمـــان أنت فيــه خليـفة وإمـــام

هكذا جاء شعر شوقي في هذه المرحلة مرتبطا بالخديوي «حتى بلغ الأمر به خضوعه لإرادة الخديوي، فكان يهجو من يغضب عليه الخديوي، ويمدح من يرضى عنه الخديوي، وبهذه التجربة لم يستطع شوقي أن يترك أثراً كبيراً رغم شاعريته الكبيرة».

عاش شوقي في القصر حياة مترفة كلها عبث و لهو فكتب قصائد يصف فيها الخمر و يعبر عن لذتها:

ذقت منهـــا حلواً ومراً وكانت لذة العشق في اختلاف المذاق

حملـيني ماشئت في الحب إلا حادت الصب أو بلاء الفراق

إلاّ أن هذا الأمر لم ينس الشاعر عروبته و إسلامه، حيث تغنى بالإسلام وأكثر من ذكر الرسول (صل الله عليه وسلم) والقرآن والخلفاء الراشدين وكتب أعظم المدائح النبوية، ودافع عن الخلافة الإسلامية وكانت مدائحه النبوية تقليدية معارضة، فعارض في (نهج البردة) و(الهمزية النبوية) بردة البوصيري وهمزيته، وقد نظم الأولى تذكارًا لحج الخديوي عباس عام 1940م، وعدد أبياتها مائه وتسعون بيتا، بدأها بغزل تمهيدي أعقبه نصح لنفسه بالورع والتحذير من الدنيا الخادعة ثم التخلص إلى مدح الرسول، وذكر بعض معجزاته، كما له قصيدة ثانية بعنوان (ذكرى المولد). وكانت قصائد أحمد شوقي في هذا الغرض «رابطة وصل بينه وبين الشعب الذي كان يتلقاها بالرضا لما فيها من عواطف دينية في وقت كانت الهجمات الغربية شديدة على المسلمين والإسلام».

ب. مرحلة المنفى: كان لنفي شوقي إلى اسبانيا عام 1914 إلى غاية 1920 تأثير كبير على حياته وعلى شاعريته وعلى صلته بالجماهير أيضا، وهي مرحلة مهمة من مراحل شاعريته يسميها حنا الفاخوري مرحلة الإنعتاق الشعري والانفتاح الشعري على الشعر الشخصي. وفيها تحرر الشعر من سلطة القصر وقيوده فإذا بشعره قد أصبح «خافق بأشجن العواطف الإنسانية وأسماها، وأشدها تأثيرًا في القلوب، وإذا النظم عذب، يتدفق عن طبيعة سمحة، ترافقه موسيقى ناعمة سلسة».

ج. مرحلة ما بعد المنفى:

عندما عزل الخديوي عباس كان الشاعر أحمد شوقي في مقدمة الذين أطيح بهم، حيث نفاه الإنجليز إلى اسبانيا «فنزل في برشلونة يتنفس أجواء الحرية بعيدًا عن القصر وأجوائه الملوثة ... وهناك شرع يكتب عن مصر وعن تاريخ العرب في الأندلس في غرناطة وأشبيلية وقرطبة ... وصف قصر الحمراء ... وكتب (أميرة الأندلس) المقتبسة عن حياة المعتمد بن عباد وزوجته الرمكية ... وكتب ديوانه(دولة العرب وعظماء الإسلام)». وهي أرجوزة مطولة عدد أبياتها 1726 بيتا عرض فيها لتاريخ المسلمين والسيرة النبوية والخلفاء وبني أمية وبني العباس والفاطميين.

في المنفى وجد شوقي نفسه بعيدًا عن وطنه الذي أصبح جوهر قصائده، وقارن بين إسبانيا التي كانت في يوم من الأيام مهدًا للعرب وحضارتهم، وبين وطنه مصر الذي وقع تحت أيدي الاحتلال الإنجليزي: فوصف الأندلس ومعالمها، فراح ابن زيدون شاعر الأندلس، فعارض نونيته الشهيرة بقصيدة أولها:

يـــا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوديـــنا

ماذا تقص علينا غير أن يدًا قصت جناحك جالت في حواشينا

رمى بنا البين أيكًا غير ســامرنا أخــا الغريب: وظلاً غير ناديـنا

في هذه القصيدة يخاطب شوقي الطير ويبثه أشجانه وآلامه ولوعته، فقد تخيل هذا الطير صديقا حزينا وحالته تشبه حالة الشاعر، فأصبح يخاطبه ويبثه آلامه عله يجد فيه الرفيق الذي يخفف عنه آلام النفي والبعد عن وطنه. وهي القصيدة التي عارض فيها نونية ابن زيدون كما-أسلفنا- التي يعاقب ويلوم فيها الدهر على قدرته على إحداث الفراق بينه وبين محبوبته التي يحيا بقربها ويموت قلبه بعيدًا عنها يقول ابن زيدون:

أضحى التنائي بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافيناحين

ألا- وقد حان صبح البين- صبحنا ... فقام بنا للحين ناعينا

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم حزنا ... مع الدهر لا يبلى ويبلينا

وفي معارضة شوقي لابن زيدون في هذه القصيدة «استطاع أن يقدم هذا النوع من المعارضات في هذه الصورة الجديدة، التي تجمع بين عناصر التراث التشكيلية ودعائم التجديد الكنائية، في اختيار الموضوع وتقديمه بوحدة موضوعية، واختيار الألفاظ والتراكيب التي توافق ذوق العصر الحديث وبذلك استطاع أن يحقق جدلية الذات والتجديد في هذا النوع من المعارضات الشعرية الذي لا يتفق فيه إلا في ناحية الشكل فقط».

لقد غيرت تجربة المنفى أحمد شوقي بالكامل، حيث أصبح يرى في منفاه ما لم يره عندما كان يتقلب في نعيم الخديوي بعيدا عن هموم ومعاناة شعبه، ولهذا كانت مرحلة ما بعد المنفى أخصب مرحلة في حياة شوقي الشعرية، حيث لامس فيها قضايا عروبته، وتنبه لقضايا مصر أكثر من ذي قبل «إنها تجربة المنفى العميقة التي قادت شوقي إلى التربع على عرش قصيدة بموضوعات تاريخية ودينية ووطنية خالدة».

وله قصائد في وصف قصر الحمراء في غرناطة وما فيه من قباب وأسود ومرمر تنتر من حولها الماء. مذكرنا بقصائد الشاعر ابن حمديس في وصف قصور المعتمد بن عباد. لقد أحزن الشاعر ما آل إليه هذا القصر الذي

فقد جماله و بهاءه، فوصفه وصفًا دقيقا ينم عن دقة الملاحظة، وبمشاعر عميقة وصادقة تدل على عمق التأثر لضياع تلك الأماكن ومما قاله:

وقبــاب من لازورد وتبــر كالربى الشم بين ظل وشمس

وخطــوط تكفلت للمعــاني ولألفــاظـها بأزيــن لبس

وتــرى مجلس السبــاع خلاءً مقفر القاع من ظباء وخنس

لا الثريــا ولا جواري الثريــا يتــنزلن فيه أقمــار أنس

بعد عودة شوقي إلى مصر عام 1919 لم تفتح أبواب القصر أمامه، فوجه شوقه وحنينه إلى مصر بمشاعر عميقة وصادقة، فكانت «عودته حرة ... لا يقيده بلاط ويعقل لسانه خديوي عاش بين الشعب وإلى الشعب ... يهتم بقضاياه الوطنية والقومية والإنسانية وينظم في شتى الموضوعات التي تعود إلى الناس... فجابت شهرته الآفاق وكان منزله مقصد الأدباء والمفكرين ومنتدى للمناقشات الأدبية».

وبذلك نزل أحمد شوقي من عرش الخديوي إلى الشعب فتحسس أوجاعهم وآلامهم، وتعرف إلى آمالهم، وبذلك كان شعره في هذه المرحلة أكثر خصبا وأتم نضجاً، وأعظم واقعية وصدقاً، وقد بررت من خلال أشعاره عواطف إنسانية عالية من مثل عاطفة حب الوطن حباً يصل إلى حد التقديس، وكذلك حب الدين بعيداً عن روح التعصب، ثم حب الحرية الذي ظهر في دعوته للشباب للنهوض بالوطن وتحقيق الاستقلال، وتحرير المرأة من العادات والتقاليد البالية التي كبلتها زمناً طويلاً.

2- شعــره:

عالج أحمد شوقي في شعره موضوعات شتى، فانطلقت قيثارته لتغرد في كل الأغراض الشعرية، وشتى القضايا القومية «فيما يشكل بشعره توثيقاً كاملاً لمجريات السياسة والأحداث الوطنية آنذاك». ومن هذه الأغراض:

- إسلامياته التي مدح فيها الرسول (*صلى الله عليه وسلم*) ومنها قصيدته (البردة) التي قال فيها:

محمد صفوة البــاري ورحمته وبغية الله من خلق ومن نسم

وصاحبُ الحوض يومَ الرسل سائلة متى الــورود وجبريل الأمين ظمي

إلى أن يقول:

ســرت بشــائر الهــادي ومــولده في الشرق والغرب مسرى النور في الظلم

تخطـفت مهج الطــاغين من عُــرب وطيرت أنفس البــاغين من عــجم

- وفي شعره السياسي وقف أحمد شوقي مع الخديوي عباس حلمي في صراعه مع الانجليز ومع من يوالونهم لا نقمة على المحتلين فحسب بل رعاية ودفاعاً عن ولي نعمته كذلك، فهاجم رياض باشا رئيس النظار حين ألقى خطاباً أثنى فيه على الانجليز وأشاد بفضلهم على مصر وقد هجاه بقصيدة عنيفة جاء فيها:

غمرت القوم إطراءاً وحمداً وهم غمروك بالنعم الجسام

خطبت فكنت خطباً لا خطيباً أضيف إلى مصائبنا العظام

لهجت بالاحتلال وما أتــاه وجرحك منه لو أحسست دامٍ

وبلغ من تشييعه للقصر وارتباطه بالخديوي أن ذمَّ أحمد عرابي*، حيث ساءت العلاقة بين الشاعر والقوى الوطنية نتيجة وقوفه إلى جانب الخديوي عباس والدفاع عن سياسته في مهادنة الانجليز وتنكره للقوى التي كانت تنادي في ذلك الوقت بالدستور وتحقيق الجلاء والاستقلال عن بريطانيا، فكتب عشرات من الأبيات على صفحات جريدة المؤيد يسخر فيها من أحمد عرابي والعرابيين بدون توقيع. ولم يرث صديقه مصطفى كامل إلاّ بعد فترة استوثق فيها عدم إغضاب الخديوي، وجاء رثاؤه لمصطفى كامل شديد اللوعة صادق الأحزان قوي الرنين، بديع السبك والنظم، وإن خلت قصيدته من الحديث عن زعامة مصطفى كامل وجهاده ضد المستعمر ومطلع القصيدة يقول فيه:

المشرقـــان عليك ينتحبـــان قاصبهـــما مأتـم والـــدانفي الله

يـــا خادم الإسلام أجر مجاهد من خلد ومن رضوان

لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى في الـــزائرين وروّع الحرمـان

- ومن وطنياته تسمع له هذا الحنين الصادق، ووجدانه المفعم بحب مصر حين يقول:

اختلاف الليل والنهار ينسى اذكرا لي الصبا وأيام أنسي

وصفا لي ملاوة من شباب صورت من تصورات ومسّ

عصفت كالصبا اللعوب ومرت سنة حلوة ولذه خلس

فالشاعر في حركة استرجاعية يتذكر فيها شبابه وأيامه الخوالي فيشير إلى حب مصر:

---

*- أحمد عرابي زعيم الثورة العرابية التي شبت سنة 1881م مناهضة لسياسة الخديوي، وقد انتهت هذه الثورة بتدخل الانجليز واحتلالهم للإسكندرية سنة 1882م وتم القبض على زعماء الثورة إثر موقعة التل الكبير.

سلا مصر هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسي

كلما مرّت الليالي عليه رقّ والعهد في الليالي تقسي

أحرام على بلابله الدوح حلال للطيور من كل جنس

فالقصيدة على ما فيها من مظهر تقليدي بنائي لافت يتمثل في التصريح القائم على التجانس الصوتي بين عروض البيت الأول وضربها، إلاّ أنها تضمنت معانٍ جديدة متصلة بواقع الشاعر بعيداً عن وطنه، ولهذا لم يجد لنفسه بديلاً عنه في واقعه، ولذلك يبدو أكثر وطنية وارتباطاً بأرضه في قوله:

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

شهد الله لم يغب عن جفوني شخصه ساعة ولم يخل حسنيّ

انفجر الشاعر في هذه القصيدة انفجارا عاطفيا مؤثراً فراح «يتغنى بمحاسن مصر وحضارتها وتاريخها، ويتدفق شعراً وجدانيًا صافياً، يترقرق في جو من الموسيقى الحالمة والشجية في جو تزدحم فيه الذكريات وتتعالى في جوانبه الآهات، ومصر في كل عبارة وفي كل بيت روح تحن إليها الروح، ووطن يمتد إليه القلب المجروح».

- وقد حاول شوقي أن يصل مضمون شعره بقضايا عصره في خطوة منه للبحث عن مجال لحركة أشعاره الإبداعية، ومن ذلك شعره الاجتماعي الذي نراه ينزل به إلى ساحة العلم والتعليم ليعطي المعلم حقه وينزله منزلته يقول:

كما نظم الشاعر أحمد شوقي قصائد في حق المرأة يدعو فيها غلى تعليمها في قوله:

قم للمعلم وفيه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولايبني

أعلمت أشرف أو أجّل من الذي وينشئ أنفساً وعقولا

سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى

فإذا النســاء نشأن في أمية وضع الرجال جهالة وخمولا

- بالإضافة إلى ما أبدعه شوقي على مستوى القصيدة الكلاسيكية فقد أبدع جنس أدبي جديد هو المسرحية الشعرية، فكتب في آخر حياته عدداً من المسرحيات الشعرية التي فتحت طريقها غير مألوف في مسيرة الشعر العربي.

بلغ أحمد شوقي قمة مجده وأحس أنه حقق كل أمانيه بعد أن بايعه شعراء العرب بإمارة الشعر عام 1927، فرأى أن تكون الإمارة حافزاً له لإتـمام ما بدأ به عمله المسرحي، فقد ظهرت الطبعة الأولى لمسرحية (مصرع كليوباترا) في أفريل عام 1928، وظهرت مسرحية (قمبيز) عام 1961، وصدرت الطبعة الأولى لمسرحية (علي بك الكبير) في مارس عام 1933 مع تعديل جوهري عما في الطبعة الأولى، وظهرت مسرحية (مجنون ليلى) عام 1931، وروايتي (عنترة) و(أميرة الأندلس) عام 1933، ثم مسرحية (الست هدى) التي طبعت بعد وفاته بكثير وظهرت مسرحية (قمبيز) قبل وفاته بقليل.

تحرك شوقي في مسرحياته بين أرجاء التاريخ فضلاً عن إفادته من السير الشعبية وقصص العشاق النثرية في التراث العربي وتاريخ المماليك والفراعنة وأيام الفرس، وكان الرصيد المعروف لهذه الموضوعات قد أفاد شوقي في تشكيل مادة مسرحية لها بداية ونهاية ومكان وزمان وحدث وشخصيات، فمن السير الشعبية وقصص العشاق النثرية للعرب تصيد مسرحيتي (مجنون ليلى وعنترة) ومن التاريخ الخالص أخذ (علي بك الكبير) عن المماليك، وكتب (مصرع كليوبترا) عن التاريخ الفرعوني، ثم أفاد من الفرس وكتب (قمبيز).

ارتاد شوقي الطريق الصعب، لأنه تحول بشاعريته الغنائية الناجحة إلى شاعرية مسرحية، والفارق الإبداعي كبير، فالغنائية صوت منفرد، والمسرح عمل تركيبي، والصعوبة الثانية أن المحاولات قبله تكاد تكون معدومة في أدبنا العربي، والصعوبة الثالثة وهي ما مدى مناسبة الشعر التقليدي للحوار المسرحي.

3- خصائص شعر شوقي:

امتاز شعر شوقي بخصائص نلخص بعضها فيما يلي:

- حافظ شوقي على تراث الشعر العربي القديم مع العمل على تصويره، حيث التزم في شعره بعمود الشعر كما فهمه القدماء ومع ذلك فإن الكلمة والجملة والغناء والموسيقى كانت عنده تخضع لاختيار شديد.
- أكثر شوقي في شعره من المدائح النبوية كما كتب عن الإسلام ورسوله ولغته وتاريخه ومفاخره ومآثره وخلفاؤه وأبطاله مما دعم به وحدة الشعوب الإسلامية، فكانت له في ذلك قصائد مؤثرة.
- استخدم شوقي المعاني القديمة والجديدة فاختار منها ما شاء، وطعمه الخيال الغربي بألحان جميلة فحلق في كل جو وسطع في كل أفق واستخرج من الشعر العربي أروع ألحانه فكان شعره أعلى طبقة وأرجح وزنًا من شعر شعراء عصره.

- تمثل شوقي في شعره الكثير من أفكار القدماء وصورهم وعواطفهم وفي موضوعاتهم الشعرية من مدح وهجاء ووصف ورثاء وفخر وغزل كما نلحظ ميله في بعض أشعاره إلى المبالغة والتهويل وفخامة الأسلوب.

- النص الشعري عند حافظ إبراهيم:

تمهيد:

إلى جانب البارودي وأحمد شوقي يقف الشاعر حافظ إبراهيم كرائد ثالث من رواد المدرسة المحافظة في الشعر، حيث كان شديد التأثر بالشعر العربي القديم، فانكب على دراسته وحفظه والتأثر به.

تناول حافظ إبراهيم في أشعاره موضوعات وأغراض شتى، فهو الشاعر الذي انخرط في صفوف المجتمع والأمة وعبر عن مجموعة من القضايا، فالشعر عنده هو الوسيلة للتعبير عن همومه وهموم المجتمع والأمة، لذلك

شغفت نفسه بالأدب عمومًا منذ طفولته، حيث انكب على كتب الأدب ودواوين الشعراء القدامى، كما أعجب أيضًا بالشاعر محمود سامي البارودي.

ونظرًا لعظمة حافظ إبراهيم وعظمة شعره فقد اعتلى ذروة الشعر العربي الحديث، وصار زعيما من كبار الزعماء الوطنيين المخلصين يتغنى الشعب بشعره ويفضله على سائر الشعراء، حيث اجتمع لحافظ من متخير القول ومصفى الكلام شعراً ونثراً ما لم يجتمع لشاعر من خلال شعره الوطني الاجتماعي والملحمي ومراثيه وشكواه من الزمان وغيرها.

1- موضوعاته الشعرية:

سار حافظ إبراهيم في شعره على هدي الشعراء القدامى في التزامه بنظام القصيدة العربية بنموذجها القديم القائم على نظام الشطرين وطرق الأغراض نفسها التي طرقها الشعراء قبله مثل المدح والرثاء والهجاء والوصف وغيرها، ومن أمثلة على مدحياته ما قاله في مدح محمد عبده:

قالوا صدقت فكان الصدق ما قالوا　　مـــا كل منتسب للقول قــوّال

هذا قَريضي وهذا قَدْرُ مُمْتَدَحي　　هل بَعْدَ هذيْنِ إحْكامُ وإجْلال

إنِّي لأبْصِر في أثنــاء بــردته　　نُــورًا به تَهْتدي للْحَقِّ ضُلاّل

حَلَلْتُ دارًا بها تتْلى مناقبه　　ببابـها ازدَحَمَتْ للنّاسِ آمـــال

إنّ القارئ لهذا المقطع الشعري يلمس فيه جزالة الجمل الشعرية وتراكيب الكلمات وحسن الصياغة مع المحافظة على موسيقاه الخارجية للبحر البسيط.

ومما قاله الشاعر في غرض الرثاء قوله في تأبين جورجي زيدان:

دَعـاني رِفاقي والقوافي مريضة وقد عقدت هوج الخطوب لساني

فَجِئتُ وبي ما يعلم الله من أَسى ومن كمد قد شفني وبراني

مللت وقوفي بينكم متلهفا على راحــل فـارقته فشجاني

أَفي كل يوم يبضع الحزن بضعة من القلب إني قد فقدت جنائي

يلحظ الدارس أو القارئ لهذه الأبيات ما تختزنه ألفاظها وعباراتها من معاني الحزن والأسى العميق على فقدان شخصية مهمة من أعلام الأدب جرجي زيدان.

ومن شعر حافظ إبراهيم في غرض الوصف قوله في وصف الشمس:

لاح منها حاجب للناظرين فنسوا بالليل وضاح الجبين

ومحت آيـتهـــا آيـتـه وتبدت فتنة للعـــالمين

نَظَرَ (أبــراهام) فيها نظرة فَأَرى الشَكَّ وَما ضَلَّ اليَقين

قـــال: ذا ربي فلما أفلت قـال: (إني لا أحب الآفلين)

فهذا الوصف على ما فيه من حسن وجمال يوظف الشاعر في تقريبه لهذه الصورة ألفاظ مستوحاة من القاموس الديني (آية، العالمين).

إذا كان الشاعر حافظ إبراهيم قد طرق في شعره موضوعات وأغراض شتى، فإن الشعر الاجتماعي قد شكل نصف شعره تقريبًا، فكان شاعر الدعوات الإصلاحية وخص ديوانه الشعري بكثير من القصائد التي تدعو إلى العلم وتحث على بناء الجامعات وتكليل العلم بالأخلاق ومحاولة الانتفاع به لأنه نعمة من الله سبحانه وتعالى وتسخيره لفعل الخير بدلاً من تسخيره لفعل الشر:

ولقد حسبت العلم فينا نعمة تأسوا الضعيف ورحمة تتدفق

فـإذا بنعمته بـلاء مـرهق وإذا برحمته قضـاء مرهـق

فالشاعر يعرف قيمة العلم ودوره في رقي الشعوب شريطة أن يكون مرتبطًا بالأخلاق وهذا لم يأت إلاّ عن قناعة وتفكير راجحين، وهو الذي يرى تخبط أمته في ظلام الجهل الدامس.

كان شعر حافظ إبراهيم «صورة لبيئته وعصره، وسجلاً لأحداث زمانه، ولم يكن بالسجل الشاهد في غير تأثر انفعال، بل كان سجلاً نابضًا بالحياة تختلج فيه عاطفة الشاعر اختلاجاً شديداً، وتضطرم فيه نفسه اضطراماً ملموساً». ومع ذلك فإن حافظ إبراهيم لم يحظ بخيال عميق «ولم يستطع من ثم أن يخلق جديداً في عالم التصور وابتكار المعاني، ولهذا مال إلى الأمة يجسم آمالها، وإلى الشعب العربي يداعب طموحه في يقظته الجديدة، وقد ساعدته بيئته على ذلك لما اعتلج فيها من أحدث ... ومن تحركات تعمل على تحرير اللغة والمرأة والعاطفة الدينية وتسعى في سبيل ترقية الشعب وإخراجه من سجنه المظلم». فيكتب الشاعر قصيدة على لسان اللغة العربية يبين فيها محاسنها ويؤكد على قدرتها على مسايرة العصر بكل ما يشمل عليه من علم وحضارة وتقدم بما تتمتع به من خصب ونماء يقول:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ونـاديت قومي فاحتسبت حياتي

رموني بعقم في الشباب وليتني عقمت فلم أجزع لقول عداتي

ولدت ولما لم أجد لعرائسي رجالاً وأكفـاء وأدْت بنـاتي

وسعت كتاب الله لفظاً وغـاية ومـا ضقت عن آي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسمـاء لمخترعـات

ومن قضايا المرأة وكل ما يتعلق بها من جميع جوانبها كتب حافظ إبراهيم العديد من القصائد يقول في الدعوة إلى تربية الفتاة:

من لـــي بتربية النساء فإنهـــا في الشرق علة ذلك الإخفاق

الأم مدرســة إذا أعددتهـــا أعددت شعبا طيب الأعـــراق

الأم روض إن تعهد الحيـــا بالرِّي أورق أيـــما إيـــراق

الأم أستاذ الأساتذة الألـــى شغلت مآثرهم مدى الآفـــاق

فإعجاب الشاعر بالمرأة وتقديره لها مع الإشادة بدورها في بناء المجتمع يحمله على الدعوة إلى تربيتها تربية صالحة حتى تستطيع هي بدورها تربية أجيال صالحة أيضا.

الملاحظ أن شعر حافظ إبراهيم تغلب عليه البساطة «فألفاظه ومعانيه وأسلوبه جميعها تتصف بالسهولة والقرب والوضوح مع الابتعاد كثيراً عن التعقيد أو التكلف أو التصنع لأنه شاعر الشعب ويكتب بلسانه ويعبر عن آماله». وقد كان للشاعر رأي في قضية سفور المرأة وحجابها وهو رأي وسط فهو ليس الإطلاق التام الذي يؤدي إلى الانحراف والفساد والتضييق الذي يؤدي الإجحاف والجمود، لأن المرأة لا ينبغي لها أن لا تحجم عن المشاركة الاجتماعية، كمالا يدعوها إلى الخروج عن الموروثات والقيم يقول:

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا بين الرجال يجلن في الأسواق

يدرجن حيث أردن لا من وازع يحـــذرن رقبـــته ولا من واق

يفعلـــن أفعال الرجال لواهيا عن واجبات نـــواعس الأحذاق

وفي شعره السياسي عالج حافظ إبراهيم موضوعات سياسية متعددة ارتبطت بالاحتلال الأجنبي وفساد الحكم وتعدد الأحزاب وهاجم الاحتلال الانجليزي، وتحدث عن المعاهدات المصرية ودعا إلى وحدة الصفاء ويقظة الشباب وقد عرض لكل ذلك في قصيدة زاد عدد آياتها عن مئة وخمسين بيتًا مطلعها:

قد مر عـــام يا سعـــاد وعـام وابن الكنانة في حـماه يضام

صبوا البلاء على العباد فنصفهم يحيى البلاد ونصفهم حكام

على ضوء ما سبق يمكن القول أن الشاعر حافظ إبراهيم استحق فعلا لقب شاعر الشعب فهو الذي أعطى رسالة سامية للأدب لمعالجة مختلف القضايا الاجتماعية ونصوصه الشعرية خير مثال على ذلك، وما يلفت انتباهنا في شعره: هو بساطة التعبير والابتعاد عن التكلف، والاهتمام بالخيال البسيط وتوليد المعاني وتقليلها إلى غايته المرجوة في التأثير والإقناع وهذا سر محبة الشاعر وتقديره بين صفوف عامة الناس على مختلف درجاتهم الثقافية.

المحاضرة الثالثة:

الإحياء الشعري في المغرب العربي:

- حركة الإحياء الشعري في الجزائر:

تمهيد: إن أصول الحداثة في الأدب الجزائري ترجع إلى النصف الأول من القرن التاسع حين كان ارتباط الحركة الأدبية في المغرب العربي بالمشرق العربي قائما، وقد بدأت النهضة في الوطن العربي عموماً باستلهام التراث العربي المشترك في عصور ازدهاره الأولى، منطلقة من إحياء أمهات الكتب في هذا التراث والاستفادة من عناصر القوة فيه، إلى جانب ما بدأت تسهم به حركة الترجمة والنقل والطباعة والنشر والانفتاح الأوربية عموماً.

وإذا كان من رواد الحركة الأدبية في المشرق العربي محمود سامي البارودي، فإن الأمير عبد القادر الجزائري يعتبر من روادها في المغرب العربي عموماً، وفي الجزائر خصوصاً، فهما يمثلان معاً مدرسة الإحياء، فكلاهما اشتركا في صفات البطولة في الشعر وفي الحرب، كما كان كلاهما متصل بالتراث الأدبي العربي عموماً والشعري خصوصاً في عصوره الزاهية، يستوحيانه في الإنشاء مع روح تجديدية تعكس تلك المرحلة.

- زعامة الأمير عبد القادر للحركة الأدبية الجزائرية الحديثة:

يعد الأمير عبد القادر الجزائري زعيم الحركة الأدبية الجزائرية بشعره الذي اختلفت ألوانه من ثوريات وإخوانيات وغزليات، فخراً وتصوفاً وتأملاً وصفاءً، وهي ألوان شعرية اختلفت حجما أو كثافة أو مستويات فنية.

فالأمير عبد القادر من جيل النهضة الحديثة في الوطن العربي، مسك بزعامة السيف وزعامة الشعر في وطنه، وذلك من خلال ما حفل به ديوانه الشعري من قصائد ومقطوعات منها شعر المناسبات المختلفة، وشعر الإخوانيات في حربه أو في أسره أو غيرهما. وأشعاره في التصوف إلى جانب موضوعين أصيلين في الشعر العربي من الفخر والغزل، وهذا التنوع الشعري في ديوان الشاعر عبد القادر الجزائري دليل على موهبة الرجل وبراعته الشعرية.

ففي شعر الفخر يفخر الشاعر بحسن قيادته وبراعته في إدارة المعركة وتقدمه الصفوف الأمامية لمواجهته الأعداء، كما يفخر بهمته العالية في والحرب، مثلما يفخر بقومه وجيشه

كما عبر الشاعر أيضاً عن شجاعته في منازلة الجيوش الفرنسية، ومن أولها بطولته في معركة (خنق النطاح) قرب (وهران) عام (1832م) حين كان قيادة المجاهدين بيد والده (محي الدين) فوصفها الأمير وصفاً لا يخلو من حيوية متدفقة، وهو وصف مفعم بروح الاعتزاز والإباء لشاب في الخامسة والعشرين من عمره فقال:

ألم تر في (خنق النطاح) نطاحنا غداة التقينا، كم شجاع لهم لوى
وكم هامة ذاك النهار قددتها بحّد حسـامي، والقنا طعنه شـوى

وقد اقترن فخره بحسن البلاء في المعارك بعلمه، وأدبه على نحو بدا فيه ذا قرب من شخصية (المتنبي) في مثل خطابه إلى زوجه (أم البنين):

وعنّي سلي حيث الفرنسيين تعلمي بأن مناياهم بسيفي وعشالي
سلي الليل عنّي كم شققت أديهه على ضامر الجنبين معتدل عالٍ
سلي البيد عنّي والمفاوز والربّى وسهلاً وحزناً كم طويت بترحالي

وقد كان الشاعر مُجيد الوصف خاصة في وصف مشاعره وحركات جواده في كره وفره ومراوغته في المعركة المحتدمة، مستمدّا التراث الشعري القديم، كما كان يستمد الكلمات والتعابير من البيئة البدوية بكل ظلالها، فانطلق يصف الطبيعة الريفية وطيب هوائها ونسيمها، كما وصف أيضاً غزلانها وأنعامها وأخلاق البدوي من الكرم والنجدة وحسن الأخلاق، وهو ما قد يلخصه قوله:

ما في البداوة من عيب تذمّ به إلا المروءة والإحسان بالبدر

أما في غزله فقد كان كثير الشكوى من الحبيبة، وبعدها عنه وتمنعها القرب مما نلمس أصالة التجربة العاطفية الصادقة فعكس غزله حساً رقيقا وعاطفة جياشة، يضنيه الشوق لبعد الحبيبة فكان غزله في زوجته خاصة يبرز معاناة الشاعر لبعدها عنه ومن قصائده في هذا الغرض نذكر: (مسلوب الرقاد) (دموع ونار)، (وليس للحب دواء)، (ذات خلخال)، ... وغيرها. يقول الشاعر في زوجة طبعت في قلبه الهيام الدائم:

أقاسي الحب من قاسي الفؤاد وأرعاه ولا يرعى ودادي
وأبكيها فتضحك ملء فيها وأسهر وهي في طيب الرقاد
وأبذل مهجتي في لثم فيها فتمنعني وأرجع صـــاد
فما تنفك عنّي ذات عزّ وما أنفك في ذُلي أنادي

وبقدر ما في شعر (الأمير) من فروسية وحب وطموح فيه من التقليد والإجترار ما لدى غيره من معاصريه في الوطن العربي، وهو في ذلك غير مفصول عن موروثه الفكري والأدبي والشعري خصوصاً، يرتكز إلى موروثه المسموع من الشعر العربي مقروناً عموماً بطبيعة أرضه الريفية، وخبرته بها وبالإنسان وحياته الاجتماعية في الحل والترحال، عادات وتقاليد. وإن بدت بصمات واضحة لشعراء الفروسية، فهي ترجع إلى فترات المجد الشعري لدى (عنترة) و(المتنبي) في الصلة بالبادية، وحسن البلاء في طلب المجد وفي الحرب والحب أيضاً. ومهما يكن من شيء فإن شعر (الأمير) رغم كل شيء عبر عن عصره كما عبر بشكل ما عن بيئته الخاصة محلياً، كما عبر هذا الشعر عن شخصية صاحبه وعكس طموحه وآماله.

– شعراء الإحياء في الجزائر:

حاولت الحركة الأدبية في هذه الفترة أن تعكس وضعية المجتمع الجزائري، حيث حاول الأدباء وخصوصاً الشعراء التعبير عن صدى المجتمع وهمومه ومعاناته وطموحاته وآماله، خاصة وأن الجزائر في هذه المرحلة كانت تعيش ظروفاً خاصة تحت وطأة الاحتلال الفرنسي، ونتيجة لتلك الظروف تألقت أسماء أدبية وشعرية في الجزائر منذ بداية العشرينيات تعكس ملامح أدب جزائري نضالي، حيث سخّر الأدباء وعلى رأسهم الشعراء شعرهم لخدمة الثورة والتغني ببطولاتها وأمجادها والتنديد بفضاعة المستعمر. ومن الأسماء الأدبية في هذه المرحلة نذكر الشاعر (محمد العيد آل خليفة) الذي حمل لقب شاعر الشباب وشاعر المغرب العربي، وهو من الشعراء الذين سخروا شعرهم النضالي لمواجهة ظلم واستبداد المستعمر، حيث وجد الشاعر نفسه منذ فجر فتوته في مواجهة المحنة العامة، فانتهى الأمر به منذ البداية إلى التموقع في خندق النضال الوطني، ولهذا يعتبر (محمد العيد آل خليفة) علماً متميزاً خاصة من بين الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، بوفرة شعره ذي الموضوعات الكثيرة والمتعددة والقضايا المختلفة، ونضاله وصدقه فيه وإخلاصه لفنه، فبات شعره معلماً بارزاً في الحركة الثقافية، وقد جاء الشعر حافلاً بألوان شتى من الصور المختلفة ومن التعبير عما هو وطني وقومي وإنساني وديني وشخصي وغيره. والانتماء إلى العروبة لديه جزء أساسي من الانتماء القومي الأشمل للأمة الإسلامية، كما أنه يرى أنه لا

عروبة من دون إسلام، وحين يتحدث عن بلده (الجزائر) يربط ذلك بمحيطها العربي والإسلامي خاصة في المناسبات الكبرى فيقول عنها:

بين المشارق والمغارب إخوة لك عصبة بقلوبهم والأذرع

ومن نفس الرؤية يدعو المسلمين جميعاً للنهوض مسترشدين بدينهم الذي هو دين عمل وقوة وعزة ومجد يقول:

بني الإسلام أحيوا الدين أحيوا شعـــائره وأوفـــوا بالعقـــود
فديـــــن محمد ديـــن الترقـــي ومجد محمد مجد الخلـــود

ومن هذا المنطلق يؤكد في مواضيع مختلفة من ديوانه الشعري هذا الانتماء لأمة عربية إسلامية يقول:

يسألني عن نسبتي كلّ وافد عليَّ وعن شعري وعن كنه مطلبي
فقلت لهم أرض العروبة موطني ودِيني هو الإسلام والقدوة النبي

ولم يكن محمد العيد آل خليفة راضياً عن الحالة التي آل إليها وطنه وشعبه شأن كل غيور على مصالح بلاده، ومن علامات اهتمامه بأوضاع بلاده أنه سخّر الجزء الأكبر من شعره لخدمة قضايا أمته ومشكلات شعبه، كالفقر والجهل والبطالة والانحراف وغيرها من الآفات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تنخر كيان الأمة، ومن أهم المظاهر الاجتماعية والاقتصادية التي تطرق إليها محمد العيد في شعره ظاهرة الفقر التي كان يعاني منها أغلبية الشعب الجزائري، والناتجة عن الحكم الاستعماري المبني على سياسة التمييز العنصري وتهميش الأهالي وإذا كان الفقر ظاهرة عامة تشمل الجنسين (الذكور والإناث) إلّا أن المرأة كانت من أكثر المتضررين منها يقول الشاعر:

والفقر فاشٍ فالنســـاء سوافر يكدحن في طلب المعاش حيارى
يبذلن حتّى العرض في تحصيله لِيَقتُنَ أبنـــاءً لهن صغـــارَا

ومن أهم ما تميز به شعر محمد العيد آل خليفة، أنه لا يكتفي بتصوير الواقع كما يفعل البعض من أصحاب الاتجاه الواقعي، بل أنه يرشد المجتمع إلى السبل الكفيلة بتغيير الواقع من حالته السيئة إلى الحالة المرتقبة.

ومن الظواهر الاجتماعية التي شغلت محمد العيد آل خليفة وجعلته يقف عندها ملّيا ويخصص لها حيزاً كبيراً من شعره، هي ظاهرة الأمية التي فرضها الاستعمار على الشعب الجزائري من خلال منعه للناشئة من متابعة الدراسة بالمدارس الرسمية وغلقه للمدارس العربية، حيث كان لا يترك مناسبة من المناسبات الثقافية تمر دون أن يحث الشبيبة على طلب العلم والمعرفة، ومن أمثلة قوله:

العلم سلطانُ الوجود فسد به ... من شئت أو ذُد عن حَيَاضِكَ وأدْفَع
والجأ له بُدَلَ الحصُونِ فلا أرى ... حِصناً كمدرسة سَمت أو مصـــنَع
الجهل أشبه بالغُـــرابِ فماله ... من منـــزلٍ غير الخـــرابِ البَلقَع

وإن المتصفح لشعر محمد العيد آل خليفة يلاحظ تأثره بالشعر القديم واضحاً، وهذا ما ساهم في إثراء إنتاجه الشعري لغة وفكراً وأسلوباً وطبعته بطابع القوة والجزالة وأمدته بكثير من الأمثال والصور والتعابير الجاهرة حيث نلاحظ أيضا التزام الشاعر بالشكل القديم للقصيدة والسبب الذي أدى إلى التزام الشاعر بالطابع التقليدي هو انتماؤه إلى الاتجاه الإصلاحي الذي يؤثر التوجه الأخلاقي في الشعر. وإلى جانب ذلك فقد تأثر محمد العيد آل خليفة في شعره بمدرسة البعث والإحياء في الشعر العربي إذ من يلقي نظرة على ديوان محمد العيد يلاحظ بوضوح مدى التأثير الذي تركته مدرسة الإحياء في إنتاجه الشعري، وبالأخص شعر شوقي وحافظ والرصافي.

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله في معرض حديثه عن المؤثرات في شعر محمد العيد «ومن الشعراء الذين حفظ لهم محمد العيد أو قرأ لهم كثيراً شعراء الجاهلية طبعاً، ثم صدر الإسلام مروراً خاصة بالبحتري وأبي تمام، أما من المعاصرين فقد قرأ لحافظ إبراهيم وتأثر بنظرته اليائسة، كما قرأ للرصافي وخاصة شعره الاجتماعي وبرغم تردده في البداية إزاء شعر شوقي فإنه لم يلبث أن أقبل عليه» . لكن ما ينبغي أن نشير إليه هنا أن المؤثرات التي سبق الحديث عنها لم تجعل من شعر محمد العيد نسخة مكررة ولم تحل دون إبداعه وتميزه.

إلى جانب محمد العيد آل خليفة نجد الشاعر (مفدي زكرياء) وهو من الشعراء البارزين في هذه الفترة وهو شاعر (الثورة الجزائرية) الذي تجاذبته السياسة والتجارة والأدب، وكان الحس الثوري والقومي متحيزاً

فيها بخاصة في شعره، الذي رافق نهوض الحركة الوطنية منذ العشرينيات وازداد توقداً بعد اندلاع الثورة المسلحة في عام 1954م، فخدم وطنه من موقع المسؤولية الأدبية والوطنية في مختلف مراحل حياته، وفي كل المواقع وبالوسائل التي تتاح فكرياً، فلعب شعره في ذلك دوراً مهماً بخاصة أثناء الثورة المسلحة، وقد غدا لشعره وأناشيده الوطنية الثورية حضور مدوَّ في الإذاعات العربية وفي المؤتمرات أثناء الثورة المسلحة.

ومن آثاره الشعرية التي خلّد فيها ذاته ووطنه وشعبه ست دواوين شعرية هي: (اللهب المقدس) (انطلاقة)، (من وحي الأطلس)، (تحت ظلال الزيتون)، (الخافق المعذب)، (إليادة الجزائر)، وإن كانت إليادة الجزائر أهم ما توّج به الشاعر نضاله الأدبي عامة دفاعاً عن الجزائر وانتمائها وشخصيتها، فإن ديوان اللهب المقدس هو الذي قامت عليه شهرة الرجل كما حمل صوته النضالي عن الجزائر المجاهدة، حيث نحس فيه بالنبض الثوري وقصف المدافع وشواظ النيران في كل صوب وزغردة الاستشهاد والإرادة الفولاذية التي أعلنت طياً لصفحة السياسة وفتحاً لصفحة الرصاص يقول:

يا فرنسا قد مضى وقت العتاب فاستعدي وخذي منا الجواب

وهو الجواب الذي جسدته إرادة الثورة في نوفمبر 1954.

وقد تقدم نشيد الوطن (قسماً) أناشيد الشاعر الوطنية إضافة إلى أناشيد أخرى مثل: نشيد جيش التحرير (بالعامية) والنشيد الرسمي لإتحاد الطلبة، والنشيد الرسمي للإتحاد العام للعمال الجزائريين، وهذا جزء أصيل من شعر الثورة الذي حفل به (اللهب المقدس) وفيه تبرز قيم النضال والثورة لدى الشاعر كما تبرز سمة فنية في لغته وهي لغة التحريض وأسلوب التعبئة الجهادية مبشراً بقيم التضحية في سبيل الوطن، صوناً للكرامة الإنسانية، كما تمثل ذلك في قصيدة ألقاها في بيروت يوم الفاتح من نوفمبر عام 1961، وأذيعت في مختلف الإذاعات العربية بعنوان «فلا عز حتى تستقل الجزائر». أسماها الشاعر بملحمة «يوم الجزائر» وهي في اثنين وتسعين بيتا يقول فيها:

مددنا خيوط الفجر قم نصنع الفجرا وصغنا كتاب البعث قم ننشر السفرا
ورعنا الليالي الحبليات، فأجهضت ولم نك نخشى من عجائبها شراَ
تبـــــارك شهراً بالخـــوارق طافحاً وسبحان من بالشعب في ليله أسرى

إلى جانب الحس الثوري في هذه القصيدة امتد الحس القومي في شراييها مشبعاً بالظلال الدينية التي أجاد الشاعر توظيفها وإن كانت القصيدة تصويراً مكثفاً لواقع ورؤى فهي أيضاً توق إلى مستقبل وطني يولد من لحظات التأزم الفاعلة المندفعة لا المستكينة المستسلمة وفي ظلالها وعد بالبشرى للنصر على الأعداء والعزة والكرامة للإنسان في الوطن العربي. موضوعها النبض الحي المتدفق، قضية الإنسان العربي ومصيره الجماعي وصياغتها شحنة من الإيمان، وطيوف من الثقة والأمل في انتصار الخير على الشر ، انتصار إرادة الحق على إرادة القهر والجبروت والطغيان.

ومهما يكن من شيء فإن شعراء الجزائر خاصة (محمد العيد آل خليفة ومفدي زكريا) هما نموذجاً واضحاً لتمثيل التيار الإصلاحي النضالي والثوري، ورغم هيمنة الإطار التقليدي لهديهم فهناك جدة في الموضوعات وحداثتها وأصالة التجربة.